

لمحات من تاريخ فدك(*)

الدكتور :
عبدالرحمن
الفريح*

* بكالوريوس
قسم التاريخ من
كلية العلوم
الاجتماعية
بجامعة الإمام
عام ١٣٩٩هـ .
- ماجستير قسم
التاريخ من
الجامعة نفسها
عام ١٤٠٥هـ .
- دكتوراه من
جامعة أم القرى
عام ١٤١٣هـ .
- يعمل الآن نائب
رئيس النادي
الأدبي في حائل.
ومدير إدارة
المستشارين بأمارة
منطقة حائل .

فَدَكُ: بلدة من مراكز الاستقرار الحضري القديم في جزيرة العرب. تتصل أخبارها بالعرب وغيرهم قبل الإسلام، وذكرت المصادر التاريخية مقرونة بحملة الملك البابلي نبونيد على شمال غرب جزيرة العرب قبل الميلاد بقرون، وارتبط تاريخها بكثير من أخبار العرب الغطفانيين من القيسية المضرية العدنانية إلى حد كبير، وارتفع ذكرها بالخلاف المذهبي حول ميراثها والجدل الكبير الدائر حول هذا الموضوع لزمان طويل .

اعتلى نبونيد عرش الدولة البابلية بعون من كهنة الإله سين فيما يُروى في عام ٥٥٦ ق.م وبسياسة توسعية سار عليها البابليون الذين لم تعد غاراتهم غارات عسكرية خاطفة في جزيرة العرب فحسب، إذ طَبَّقَ نبونيد سياسة الاحتلال المباشر والإقامة في البلاد المحتلة ومن هنا جاءت إقامته في تيماء واحتلاله فَدَكُ.

(*) فَدَكُ من أعمال المدينة المنورة قديماً، وتعرف حالياً باسم الحائط وتقع في الطرف الجنوبي الغربي من منطقة حائل إلى الشمال الشرقي من المدينة المنورة وبالقرب منها يدعى التي تعرف حالياً باسم الحويط .. والحائط والحويط تابعتان لخدمات محافظة الغزاة بمنطقة حائل.

إنّ مصادر حملة نبونيد هي حولياته وتقاريره التي تتحدث عن نبأ انتقاله من مقر حكومته في بابل وإقامته عشر سنوات متتالية في تيماء (٥٥٣ - ٥٤٣ ق.م.)، وكذا النقوش الثموديّة التي عُثِرَ عليها مؤخراً في منطقة تيماء والتي يرد فيها ذكر نبونيد وقائد جيشه .. هذه النقوش التي نُقلت معانيها إلى العربية وفُسِّرت مفرداتها لغوياً واشتقاقياً مع تحليلٍ للغة النقوش ضمن إطار اللغات السامية وتحديد حقيبتها الزمنيّة وتوضيح الحقائق التاريخية التي تضيفها أو تؤكدها هذه النقوش .

تفيد المصادر المشار إليها هنا أنّ نبونيد قام في السنة الثالثة من حكمه أي في عام ٥٥٣ ق.م بترك مقاليد الأمور ببابل لابنه وتوجّه إلى شمال غرب الجزيرة العربية، حيث اتخذ من تيماء مقراً لإقامته وفرض سيطرته على المدن من حولها وهي: دادان وفدّك وخيبر وديع.

في نص حُرّان البابلي: أنا خرجت من مدينتي بابل وسلكت طريقي إلى مدينة تيماء ثم مدينة دادان ثمّ مدينة فدّك ثمّ مدينة خيبر ثمّ مدينة يديع وحتى مدينة يثرب. لم يكن هدف نبونيد نشر رسالة دينية وإنّما كان احتلاله لهذه المدن لغاية عسكرية توسعية بحتة، هدفها الاحتلال ذاته رغماً عمّا قيل من أنّه قصد من ذلك تأديب القبائل العربية وكبح جماحها وصدّ هجماتها المتكررة على إمبراطوريته^(١). كانت فدّك واحة زراعية خصبة ذات نخيل كثيرة تسقى من عيون جارية، وقد أصبحت مركزاً تجارياً خدم أهداف الغزو البابلي بتسيير القوافل التجارية حسبما يخدم أغراض نبونيد ويحقق أهدافه.

(١) ينظر في ذلك بحث د. سعيد السعيد . حملة الملك نبونيد على شمال غرب الجزيرة العربية ، الجمعية التاريخية - جامعة الملك سعود ، عام ١٤٢١هـ ، ٢٠٠٠م .

تقع فدك في وسط حرة سوداء هي حرة فدك التي تكمل مع حرة ليلى وحرة
اثنان وحرة ضرغد وحرة النار ما يمكن أن يُقال أنه أشهر الحرار في جزيرة
العرب .. والحرة هي الأرض البركانية ذات الحجارة السوداء المحترقة، ويقال لها
اللابّة في اللسان العربي الفصيح وقد انتقل هذا اللفظ "LAVA" إلى الإنجليزية
عن طريق الإسبانية مع تحريف بسيط . قال النابغة الذبياني يخاطب عامر بن
الطفيل أحد فرسان العرب المشاهير وزعيم بني عامر الهوازنية القيسية المضرية:

لو عاينتك كماننا بطوالة بالحزورية أو بلابة ضرغد
لثويت في قد هنالك موثقاً في القوم أو لثويت غير موسد

وقال :

إمّا عصيت فإني غير منفلت مني اللّصاب فجنبا حرة النار
إذ اصنع البيت في سوداء مظلمة تقيّد العير يسري بها الساري
ندافع الناس عنها حين نركبها من المظالم تدعى أم صبار

وأم صبار هي الحرّة موزعة على أسماء عدة كما تقدم حرة فدك في جنوبها
وجنوبها الشرقي وحرة ضرغد في شمالها وتقطع هذه الأخيرة بضغن عدنة، حيث
(جنفاء) المعروفة الآن باسم (الشملي) التي كانت من أهم البقاع الفزارية الذبيانية
الغطفانية.

كان النابغة الذبياني منقطعاً إلى المناذرة ملوك الحيرة وحدث أن تعرض الملك
المنذري النعمان إلى هجاء من أحد الشعراء بأبيات منها :

قبح الله ثم ثنى بلعن وارث الصائغ الجبان الجهولا

كان خال النابغة من فدك واسمه عطية أو وائل بن عطية وهو المقصود هنا
بقول الشاعر الصائغ الجبان الجهول فتارت ثائرة النعمان وهم بالفتك بالنابغة إذ أن

الشعر نُسب إليه مع أنَّ قائله فيما يُروى هم شعراء من تميم وعلاقة تميم بالطفانية ليست حسنة في كل الأحوال على الرغم من الرابطة المضرة التي تجمع بينهما، إذ تحكم علائقهما ما عُرِفَ به حياة العرب في جاهليتهم من الثارات والغزوات والنزاع على الأمواه والمراعي .. وقد حدث بين عبس من (غطفان) وتميم أيام عدّة منها ثنية أقرن وجُش أعيار والصرائم والفروق أو قو الفروق.

أيّاً كان الأمر فقد ضج النابغة بغضب النعمان حين تمّ نبزه بخاله عطية الفدكي، فأكثر من الشعر الذي عُرِفَ في الأدب الجاهلي بالاعتذاريات أو اعتذاريات النابغة التي يلوم فيها عبدالقيس بن خُفاف البرجمي التميمي والأقارع من بني سعد من تميم؛ لنظمهم الشعر في النعمان ويتصلّ فيه من جريرة ما قالوه .. ومن شعر الاعتذاريات: قصيدته التي مطلعها :

عفا ذو حسي من فرتنى فالفوارع فجنبا أريك فالتلاع الدوافع

توهّم أحد الكتاب أنَّ خال النعمان عطية من أهل فرتاج: المورد الجاهلي الواقع في طرف جبل رمّان الشرقي^(١) .. وإن كنت لا أدري من أين جاء هذا الوهم لبعض الإخوة، فإنّ ما عرف عن عطية الفدكي خال النعمان هو أنَّ له ابن أخت أخ للنعمان من أمه ينتمي إلى كلب القضاعية اسمه وبرة بن رومانس، وقد أغزاه النعمان مع بني ضبة من تميم للإيقاع ببني عامر المضرة العدنانية وحدث بين المتحاربين يوم من أيام العرب عُرِفَ بيوم القرنيتين .. وعند ياقوت الحموي أنَّ القرنيتين: موضع بالقرب من فيد وقال حمد الجاسر: إنّه إلى الغرب من فيد ليس بعيداً عنها .

كانت ضبة قد ظهرت على ملوك غسّان في يوم بُزّاخة في حلقة من سلسلة

(١) رمّان هو ثالث الجبال بمنطقة حائل بعد جبلي أجأ وسلمى، يمتد من الشرق إلى الغرب، ويقع في جنوب جبلي أجأ وسلمى، وفي طرفه الشرقي يقع منهل فرتاج في ديار بني أسد قديماً.

وقائع تميمية غسانية منها: أضمر والترويح وكنهل.. ومن أشهر فرسان ضبّة في بُزَاخَة الرّديم الذي كان على رأس قومه في القرنين، ومن أبنائه زيد الفوارس صاحب بُزَاخَة الذي لم تجتمع سعد والرّباب من تميم إلّا عليه.

إنّ الذي يعيننا من تتبع أخبار هذه الأيام هو دفع الوهم القائل: إنّ عطية خال النعمان من فرتاج؛ إذ أن الدراسة والبحث ينفيان ذلك ويدلان دلالة لا لبس فيها على أنه فدكي لا من فرتاج.. وقد أورد ابن سعيد الأندلسي صاحب نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب ثلاثة أبيات من الهجاء المنسوب للنابعة ونبزه للنعمان بخاله، وعلّق على ذلك الدكتور نصرت عبدالرحمن محقق النشوة وقال: إنّ المقصود بها وائل بن عطية الصايغ من أهل فدك .. ووردت القصة كما ذكرناها عند الأصبهاني صاحب الأغاني وعند البلاذري في كتابه أنساب الأشراف الذي حققه مؤخراً الدكتوران زكّار وزركلي .. وعن الأصبهاني نقل الشيخ حمد الجاسر خبر سلمى بنت الصايغ أم النعمان بفدك وصلتها ببني كلب القضاعية .

بقي في خبر النابعة الذي ورد في شعره كثير من أسماء الديار الغطفانية بالقرب من فدك: أن النعمان قد غضب عليه حينما أوغر صدره المنخلّ الإشكري صاحب القصيدة التي منها :

وأحبها وتحبني ويحب ناقتها بعيري

وذلك حينما قال النابعة في المتجرّدة زوجة النعمان وهي على ما يقال في بعض الروايات عبسية من غطفان أو هي بالذات أخت قيس بن زهير سيد عبس وفارسها قال النابعة فيها: (سقط النصف ولم ترد إسقاطه)، فقال المنخلّ ليس يصف هذا الوصف الباطن إلّا من جرّب ولما تحدث الشعراء من تميم في النعمان شعراً ونُسب

الشعر إلى النابغة، كان ذلك هو القشة التي قصمت ظهر البعير فانزوى النابغة في بلاد غطفان بالقرب من فدك ينظم روائح الاعتذاريات الشعرية وأبرزها قوله:

أتاني أبيت اللعن أنك لمتني وتلك التي أهتم منها وأنصب

وفي هذه الاعتذارية ذكر لعدد من المواقع الغطفانية القيسية المضرية في حرة فدك وما جاورها مثل: يثقب وروضة الأجداد ورخة وهي تعرف بأسمائها القديمة إلى اليوم أو مع قليل من التحريف كيثقب الذي يحمل الآن اسم أثقب وهو جبل في شمال شرق فدك ليس بالبعيد عنها.

اطمأن النابغة إلى حصانة بلاد قومه وقيل إن الغساسنة أضفوا عليه نوعاً من الحماية من غضب ملوك الحيرة .. غير أنه لم يسلم من حادثة مزعجة: ذلك أن وادي أقر في حرة فدك كان حمى لأحد ملوك غسان فيما يقال فتربعت بنو ذبيان الغطفانية غصباً ففزع النابغة وقال:

وخوفتني بنو ذبيان خشيته وهل عليّ بأن أخشاك من عار؟

لقد نهيت بني ذبيان عن أقر وعن تربعهم في كل أصفار

وقلت يا قوم إن الليث منقبض على برائنه لعدوه الضاري

يسيل وادي أقر من حرة فدك فيفضي إلى ما يُعرف الآن بالحليفتين^(١) ..

وقد أورد ابن سعيد اسم أقر باسم قراقر: إمّا خطأً أمّا تصحيفاً، لكن محقق النشوة صحح الاسم.

(١) المقصود الحليفة العليا والحليفة السفلى: وهما بلدتان تابعتان لخدمات محافظة الغزالة في جنوب منطقة حائل، تقعان على ضفة وادي الرمة بالقرب من جبل العلم الذي كان يعرف قديماً باسم علم بني الصّارد نسبة إلى بني الصّارد من بني مرة من ذبيان من غطفان القيسية المضرية العدنانية.

ورد في أخبار أيام العرب، أن لحرب الفجار بين فريش وهوازن أو بين كنانة وقيس بمعنى أصح صلة بأرض فدك، ذلك أن النعمان بن المنذر طلب من يجيز لطيمه له من الحيرة تباع بسوق عكاظ، فقال البراض الكناني أنا أجيزها على كنانة، فقال عروة الرحّال وهو من هوازن القيسية وقد استكثر أن يجيز اللطيمة خلع كناني أنا أجيزها على أهل الشيخ والقيصوم يعني على العرب جميعاً، فدفعها النعمان إلى عروة فسار بها .. ولما كان بأرض فدك أدركه البراض وقتله، فشبت حرب الفجار بين أحياء المضرية كنانة وقيس وحضر الرسول ﷺ وعمره أربع عشرة سنة إحدى وقائعها .

ورد في خبر حرب الفجار أنّ اثنين من القيسية تبعوا البراض حتى لقياه بخيبر فاستدرجهما إلى دار خربة وقتلها بحيلة .. وعلى عادة اختلاق أنساب البلدان عند ابن الكلبي، فإن خيبر منسوبة إلى خيبر بن قانية إلى عبيل وعبيل هو أخو عاد كما أنّ فدك منسوبة على رأي ابن الكلبي إلى فدك بن حام كشأن سميراء وزرود في الانتماء إلى الأمم القديمة .

توصف خيبر بالحمى التي لا تفارق أهلها ومثلها فدك قال العجاج السعدي التميمي:

كأنه إذا عاد فينا أو زحك حمى قطيف الخط أو فدك

وتزعم اليهود أنّ التعشير ينجي من حمى خيبر، والتعشير هو أن ينهق الرجل عشر مرات .. ومن الطرائف ما يروى عن عروة بن الورد العبسي الغطفاني من أنه أبى التعشير وعشر من معه فمات المعشرون وسلم هو وقال:

وقالوا اجث وانهق لا تضرك خيبر وذلك من دين اليهود ولوع
لعمرى لئن عشت من خشية الردى نهاق الحمير إنني لجزوع
فلا وألت تلك النفوس ولا أتت على روضة الأجداد وهي جميع

وروضة الأجداد الواردة في هذا الشعر تقع بقرب يثقب شمال شرق فدك وما هو غير معروف ممّا له صلة بفدك الحدثان والحدثان الواردة في خبر تسمية سلمى وأجأ وفدك حرّة قيل: إنّ خالد بن سنان العبسي الغطفاني نبي أطفأ ناراً شبّت بها؛ فتنت العرب حتى كادوا يدينون بالمجوسية. وقال البيهقي فيما نقل عنه ابن سعيد في النشوة: إن خالداً كان على قرب المبعث النبوي وكانت العنقاء قد عاثت في بلاد عبس حتى صارت تخطف صبيانهم، فدعا الله أن يرفعها من الأرض، فلم تعد توجد إلا في التصوير.

على أن أهل الكلام يقولون: إن خالداً العبسي أعرابي وبري من أهل شرح وناظرة^(١) ولم يبعث الله من الأعراب نبياً قط. ويقول مصعب الزبيري والله ما بعث الله من مضر نبياً قط إلا محمداً ولكن بني عبس أرادوا معارضة قريش!

كان لغطفان نفوذها على فدك وخيبر تقوم على حمايتها وحماية مرتادي سوق نطاة خيبر الموسمي الذي يقام في شهر ربيع الأول من كل عام وعلاقتها بحوادث هاتين الواحتين علاقة قوية .. وفي السنة الخامسة من الهجرة اتجهت سرية للرسول ﷺ بقيادة عبدالله بن رواحة لقتل يسير بن رازم اليهودي الذي كان يؤلّب غطفان لغزو المدينة، وفي السنة السادسة قصدت سرية بقيادة علي بن أبي طالب فدك وأصاب بني سعد بن ذبيان بن غطفان بالهَمْج: الوادي الذي يفضي إلى الرقْم في العلم، علم بني الصّارْد من بني مُرّة بن سعد بن ذبيان.

(١) تقع شَرْج في الطرف الشرقي من منطقة حائل وهي ضمن خدمات منطقة القصيم وتعرف الآن باسم شري .. وقلب الجيم ياء لغة قديمة عند العرب وهي معروفة في لسان تميم قال أوس بن حَجْر التميمي :

خُذْتُ عَلَى لَيْلَةٍ سَاهِرَةً بصحراء شَرْجَ إِلَى نَاضِرَةِ

وناظرة أرض رملية إلى الشمال من شَرْج تعرف الآن باسم نواظر.

الصحيفة

ربيع الأول ١٤٣٦ هـ
أبريل ٢٠١٥ م

السنة الثامنة
العدد التاسع والعشرون

على أن القول بأن لغطفان موقفاً غير مشرف أثناء فتح خيبر وأن ذلك أدى إلى تفككها وضعفها وهو ما ذهب إليه البعض مبالغة كبيرة: فغطفان ظلت عزيزة مرهوبة الجانب في الإسلام وفي الذؤابة من قبائل العرب وبرز فيها مشاهير من الصحابة والقواد والأمراء والولاة وظل بيت آل بدر فيها بيتاً من بيوت الأرسطراطية العربية^(١) وقد أصهر الخلفاء والأمراء إلى البيوت الغطفانية فتزوج الخليفة عثمان بن عفان أم البنين مُليكة بنت عُيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر الفزاري، وتزوج الحسن بن علي بن أبي طالب بنت منظور من غطفان وكان أسماء ابن خارجة زعيماً بارزاً في عهد بني أمية تزوج بشر بن مروان بنته هنداً وهي أم ولده وتزوج عبدالملك بن مروان ولادة بنت خليف العباسي وهي أم ولديه الخليفين الوليد وسليمان من أشهر خلفاء بني أمية.

وكان عقيل بن علفة المري الذبياني أعرابياً جافياً ذا زهو وخيلاء شديد الاعتداد بنفسه وبقوته لا يأنف أن يرد من لا يراه كفواً لمصاهرتة حتى ولو كان من الأمراء وكان عثمان بن حيان المري الذبياني والياً على المدينة لبني أمية وابنه رباح والياً عليها لبني العباس.

وإذا كان كثير من الغطفانيين قد هجروا أراضيهم إلى الأمصار المفتوحة فالذي دعا إلى هذا ليس الضعف، بل دعت إليه الحياة الإسلامية الجديدة من المشاركة في الفتح خارج الجزيرة والرغبة في استيطان الأمصار المفتوحة فكانت غطفان تحت لواء في حرب القادسية ومذكورة في خطط الكوفة حينما تم

(١) وبيوتات الاستقرراطية العربية في الجاهلية والإسلام هم: آل بدر من فزارة من ذبيان من غطفان، وآل زُرارة من بني دارم من حنظلة من تميم، وآل ذو الجدين من شيبان من بني بكر ابن وائل ويضيف إليهم البعض آل الأشعث من كندة اليمانية.

تخطيطها وهي في خطة أهل العالية في البصرة وكذا في خراسان وتولّى إمارة العراق أحد الفزاريين وهو عمر بن هبيرة الفزاري وقبله بزمان كان سمرة بن جندب الفزاري وهو صحابي أميراً على البصرة من قبل معاوية وتولّى إمارة خراسان ذبياني آخر هو الجنيد المري وفي كتابي (القبائل العربية في خراسان وبلاد ما وراء النهر) الذي ستصدره دار ابن حزم قريباً معلومات وافية عن الجنيد أمير خراسان وبيته من آل هرم بن سنان المشهورين بالجدود في الجاهلية والإسلام قال الشاعر:

هلك الجدود والجنيد معاً فعلى الجدود والجنيد السلام

انتشر في مصر من غطفان أناس كُثُر.. وإلى فزارة ينتسب المؤرخ النسابة القلقشندي صاحب صبح الأعشى في صناعة الإنشاء ومنهم نصر الفزاري الأسكندري اللغوي صاحب التأليف في البلدان التي اعتمد عليه ياقوت الحموي كثيراً في مؤلفه معجم البلدان.. وقارن الشيخ حمد الجاسر كتاباته بما كتب الحازمي في كتابه الأماكن إذ أن الحازمي أيضاً قد اعتمد عليه.

ليس أبلغ في الدلالة على بقاء غطفان قوة متماسكة في الإسلام من وقائعها الحربية كوقعة ذات قين حين أصابت كلب القضاعية فزارة الغطفانية في "العام" في الطرف الجنوبي من محجر الذي يقال له الآن جبل المسمى في غرب منطقة حائل فاصلاح بينهما الخليفة عبد الملك غير أن فزارة الذبيانية تأرت لنفسها في بنات قين في عقر دار كلب في بادية السماوة، مما أغضب الخليفة عبد الملك فطلب زعماء فزارة وقتلهم صبراً.

وقبل ذلك وفي عام ٣٩هـ اقتتل جيشان من غطفان في تيماء أحدهما عراقي عليه المسيّب بن نجبة الفزاري الذبياني من قبل علي والثاني شامي عليه عبدالله بن

مسعدة الفزاري الذبياني من قبل معاوية وكانت الغلبة للمسيب ومن معه وكان المسيب من خاصة علي وله أحاديث عنه يرويها عمّار الدهني ثم كان ممن وجهوا الدعوة إلى الحسين للقدوم إلى العراق ثم خرج مع ثورة التوابين وزعيمها سليمان بن صرد الخزاعي وفي تلك الثورة قُتل ولماً سیرت الدولة الأموية في عهد يزيد بن معاوية جيشاً إلى الحجاز بعد مقتل الحسين كان قائد هذا الجيش غطفاني من بني ذبيان هو مسلم بن عقبة المري وكان من المدافعين عن المدينة غطفاني آخر هو معقل ابن سنان الأشجعي وفي تلك الواقعة قتل.

لو لم تكن غطفان قوة يحسب لها حساب في الإسلام لما توجه إليها جيش عباسي في فدك في عام ٢٣١هـ ليحارب فزارة ثم بني عباس؛ هذا مع أن ما قيل من اشتراك غطفان مع اليهود في حرب خيبر لم يتم وإذا كان الرسول ﷺ وأعد غطفان الحرب في جنفاء التي هي الشملي الآن، فإن حرباً بينه وبينهم لم تحدث وقد اشتركت قريش مع اليهود في موقعة الخندق والأحزاب وحصل من قريش وغيرها من قبائل العرب مع المسلمين حروب كثيرة فلم يقل أحد أن واحدة من هذه القبائل قد تأثرت بسب مواقفها قبل إسلامها وحروبها ضد المسلمين . لقد برز في غطفان في الإسلام مشاهير من الشعراء مثل أروطة بن سهية القائل:

يآل ذبيان ذودوا عن دمانكم ولا تكونوا لقوم أم خنور

ومثل ابن ميادة الذي كان شديد الاعتداد بنفسه وبقومه الذين كان يفاخر بهم العرب ومن شعره قوله:

نحن بنو ذبيان في رأس ربوة إينا تناهى عز تلك القبائل
هم أنف قيس من يقل مثلها لهم من الناس يخلط قول حق بباطل

ويسرف ابن ميادة في الفخر بغطفان وهو من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية فيقول:

ولو أن قيساً قيس عيلان أقسمت على الشمس لم تطلع عليها حجابها
ومن جيد شعره قوله متباهياً بالمضرية عامة:

فجّرنا ينابيع الكلام وبحره وأصبح فيه ذو الرواية يسبح
وما الشعر إلا شعر قيس وخندف وقول سواهم كلفة وتملّح

والتحم ابن ميادة مع الحكم الخضري المحاربي في الهجاء قال الحكم:
أصبحت في أقر تعلو أطاوله تفرّمني وقد أصبحت في الرقم

يعني أقر الوادي المتقدم ذكره أما الرقم ففي مدخل جبل العلم من شماله وأخباره كثيرة، ففي الجاهلية حدثت به وقعة بين غطفان وبنو عامر انهزم فيها فارس العرب عامر بن الطفيل وتلا هذه الوقعة وقعة في طوالة انهزمت فيها بنو عامر أيضاً وطوالة في جنوب غرب العلم وفي داخل العلم النماره التي يذكرها النابغة في شعره وفي أيام ابن الزبير أرسل المختار الثقفي صاحب الكيسانية الخشبية المذهب المعروف جيشاً من العراق زاعماً نصرة ابن الزبير لكن ابن الزبير أرسل جيشاً تصدى لجيش المختار في الرقم فهزّمه وقتل قائده ابن ورس الهمداني وللمختار أسجاع في ابن ورس هذا^(١).

من أخبار الرقم ما أورده المدائني فيما نقل عن البلاذري أن عيينة بن حصن

(١) يعرف الرقم الآن باسم الرّقْب في جنوب منطقة حائل وهو مورد جاهلي قديم في مدخل جبل العلم الشمالي، ويعد ضمن المواقع المعروفة على يمين طريق الحج المكي الكوفي بعد الحاجر للمنتجه إلى مكة.

ابن حذيفة الفزاري أشار على الخليفة عمر أن ينحّي عنه العجم وقال: إني لأخاف عليك هذه الحمراء فلمّا طعن عمر قال ما فعل عيينة بن حصن قالوا مات قال لله رأي بين الحاجر والرقم وفي رواية لله قبر بين الحاجر والرقم لقد ضمن رأياً وحزماً^(١).

كان عيينة من المؤلفة قلوبهم ولم تقتله بنو عبس في الهبأة في الجاهلية إبّان حرب داحس والغبراء : لأنهم استصغروه وكان عيينة فتاكاً وثاباً أسر زيد الخيل وحضر بُراخة مرتداً مع طليحة وروي أنه قال للرسول ﷺ اطرده هؤلاء الانتان أو العبيد فنزل قوله تعالى ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ...﴾^(٢) .
أمّا ما يتعلق بالسرايا إلى قدك فقد ورد في خبر سرية علي بن أبي طالب إليها حينما بلغ الرسول ﷺ عزم غطفان إمداد يهود خيبر ذكر الهمج ويديع ويديع هي الحويط الآن وقد كانت من مياه بني مرة بن ذبيان ذكرها نصر الإسكندري وعنه نقل الحازمي ونقل الشيخ حمد عن كتاب المناسك إنها قرية لولد الرضا بها أخلاط من الناس وإنها كثيرة الرّمّان والنخيل وبها عيون كثيرة وهذا لا يمنع إنها كانت لبني مرة من ذبيان وأورد الهمداني في كتاب صفة جزيرة العرب بيتاً من الشعر هذا نصه:

(١) وفي رواية، إنّ بين النقرة والحاجر لرأياً . يقع الحاجر في وسط وادي الرّمة في الطرف الجنوبي الشرقي من منطقة حائل ويشمل ما يعرف الآن بأرض البعاث وهو من مراحل طريق الحج المكي الكوفي بعد سميّراء للمتجه إلى مكة .. والحاجر من منازل بني عبدالله بن غطفان قديماً واختص به آل زهير بن أبي سلمى الشاعر الجاهلي وبنوه: إذ كانوا يقيمون مع أخوالهم بني عبدالله، وللحاجر ذكر في وقائع داحس والغبراء.. والحاجر ما يزال معروفاً باسمه والبعاث حديثة النشأة .

(٢) سورة الكهف . الآية : ٢٨ .

زُويت خيبر لها ف يديع ديمة كأن نوءها الجوزاء

من قصيدة واضحة التلفيق بيّنة الصنع، فقد نظر الهمداني في معلقة الحارث ابن حلزة اليشكري الوائلي وأورد قصيدتين على وزنهما وقافيتها الأولى لحجازي فيما يزعم يعدد فيها البلدان الحجازية والثانية لنجدي يذكر فيها بلدان نجد.

كانت يديع في عهد الخليفة هشام بن عبد الملك مאלاً للمغيرة بن عبد الرحمن ابن الحارث بن هشام بن المغيرة وهو من المشهورين بالجد، وكان ابن الخليفة يسومه ماله هذا لغبطته به فلا يبيعه إياه إلى أن غزا معه أرض الروم وأصاب الناس مجاعة، فقال المغيرة كنت تسومني مالي بيديع فاشتر مني نصفه فاشتره بعشرين ألف درهم وأطعم بها الناس، فلما رجع ابن الخليفة قال له أبوه: قبح الله رأيك أنت ابن أمير المؤمنين وأمير الجيش تصيب الناس مجاعة فلا تطعمهم ويبيعك رجل سوقه ماله ويطعمهم.

إذا كانت أخبار يديع وفدك تتصل اتصالاً وثيقاً بحوادث غطفان في صدر الإسلام، فإن حوادث غطفان يمكن إجمالها في الإسلام بغزوة الكدر على غطفان وسليم في السنة الثانية ثم غزوة ذي أمر في السنة الثالثة.. وفي هذه الغزوة خرج الرسول ﷺ يريد غطفان ورجع إلى المدينة ولم يلق كيداً. وذو أمر هي التي عناها سنان المري الذبياني بقوله:

وبضرغدر وعلى السديرة حاضر وبذي أمر حريمهم لم يقسم

وسنان هو والد هرم ممدوح زهير بن أبي سلمى.. وفي غطفان من المشاهير هرم بن قطبة حكم غطفان الذي تنافر عنده عامر بن الطفيل وعلقمة بن علاثة العامريان اللذان صدر عن منافرتهم مؤخراً كتاب للدكتور الزايد.

في السنة الثالثة من الهجرة سار زيد بن حارثة مولى الرسول ﷺ بسرية أدركت عيراً نقريش في الفردة ماء لبني أسد حلفاء غطفان يقع عند التقاء الثَّلبُوت^(١) بوادي الرُّمة وورد في كتاب الحازمي حديث عن ترمذ وكتيفة وأنهما إقطاع من الرسول ﷺ لأحد بني أسد وكتيفة وكتيفان ووتدة بين سميراء شمالاً والحاجر جنوباً وفي أكثر من مصدر نص صريح على أن الفردة تقع بين الربذة والغمر، مما يؤيد أنها بقرب سميراء حيث الثَّلبُوت والرُّمة مع أن الشيخ حمد يرى أنها الفردة الواقعة بقرب محجر غرب منطقة حائل.

في السنة الرابعة حدثت غزوة ذات الرقاع، وقد غزا الرسول ﷺ نجداً يريد غطفان ومحارباً ولم يكن بينهم حرب.. وفي السنة السادسة غزوة ذي قرد وسرية عكاشة بن محصن الأسدي إلى الغمر بأرض سميراء وسرية علي بن أبي طالب إلى فدك ثم سرية زيد بن حارثة إلى أم قرفة فاطمة بنت ربيعة بن بدر من مشاهير غطفان وقد قُتلت وأُخذت بنت لها من أحسن العرب وجهاً فادى بها الرسول ﷺ أسارى كانوا عند قريش.

وقبل هذا حدثت وقعة الخندق وكانت غطفان مع قريش وعليها عيينة بن حصن والحارث بن عوف المري، وكان مسعود الأشجعي الغطفاني مع الرسول ﷺ يخذل قريشاً وغطفان واليهود.. وفي السنة السابعة سار سعد بن بشير الأنصاري بسرية إلى بني مُرة بن ذبيان بفدك ارتث فيها ونزل على بعض اليهود في فدك حتى استنقل، تلتها سرية لغالب بن عبدالله إلى بني مرة بفدك أيضاً ثم سرية له إلى ذبيان في الميفعة.. وغالب بن عبدالله ليثي من كنانة ولا أدري لِمَ نسبته الشيخ حمد إلى

(١) الثَّلبُوت هو ما يعرف الآن بوادي الشعبة في جنوب جبل رمّان وهو من أعظم روافد وادي الرُّمة.

كلب القضاعية؟.. وفي السنة الثامنة بعد صلح فذك سار أبو قتادة الأنصاري بسرية تلتها سرية أخرى عليها بشير بن سعد الأنصاري إلى غطفان وعليهم عُيُنة فأصابتهم في يمن وجبار من أرض الجنب وهي الجهراء الآن غرب بلاد الجبلين.

أمّا الصلح على فذك فكان في السنة السابعة في منصرف الرسول ﷺ من فتح خيبر، فقد بعث إلى أهلها محيصة بن مسعود من غطفان يدعوهم للإسلام فأتوه وصالحوه على نصف الأرض صالحه عليها يوشع بن نون اليهودي فقبل الرسول ﷺ ذلك منهم وكانت خالصة له؛ لأنّ المسلمين لم يوجفوا عليها بخيل ولا ركاب.

تعلّق بال العباس وعلي بميراث فذك فيما تركه النبي ﷺ بعد وفاته فقال أبو بكر لفاطمة وعلي والعباس: إن رسول الله ﷺ قال: نحن الأنبياء لا نُورث ما تركناه صدقة .. وورد أنّ فاطمة طلبت صدقة النبي ﷺ بالمدينة وفذك وما بقي من خيبر فقال أبو بكر: إن الرسول ﷺ قال: نحن الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة إنّما يأكل آل محمد من هذا المال يعني مال المسلمين ليس لهم أن يزيدوا على المأكّل وإني والله لا أغير شيئاً من صدقات النبي ﷺ التي كانت عليها في عهده ولأعملن فيها بما عمل فيها.

قال ابن تيمية إنّ الله صان الأنبياء أن يورثوا دنيا لئلا يكون ذلك شُبْهة لمن يقدر في نبوتهم بأنهم طلبوا الدنيا وورثوها لورثتهم ثم إن من ورثة النبي ﷺ أزواجه ومنهن عائشة بنت أبي بكر وقد حُرمت نصيبها بهذا الحديث.

أشار ابن تيمية إلى أن أبا بكر وعمر أعطيا من مال الله أضعاف هذا الميراث للذين كانوا سيرثونه وتولّى علي وصارت فذك وغيرها تحت حكمه ولم يعط لأولاد فاطمة ولا زوجات النبي ﷺ ولا ولد العباس شيئاً من ميراثه.

كثّر الحديث عن فدك وامتلات الكتب بذكر الخلاف على ميراثها. وأورد ياقوت في مادة فدك أقوالاً كثيرة عما جرى لفدك في صدر الإسلام وعصر بني أمية وعصر بني العباس غير أنه قال: وفي فدك اختلاف كثير في أمرها بعد النبي ومن رواة خبرها من رواه بحسب الأهواء وشدة المراء ثم اختار ياقوت ما ذكره البلاذري في فتوح البلدان، حيث أورد حادثة لصلح على فدك وإنها أصبحت خالصة للرسول ﷺ يصرف ما يأتيه منها في أبناء السبيل وأن عمر قوم نصف التربة وأجلى اليهود عنها في عهده بقيمة عدل وإن مالها ظل يخرج في ابن السبيل أيام أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وأن عمر بن عبد العزيز فعل ذلك وسار على نهجه في ذلك من أتى بعده وأن المأمون الخليفة العباسي أمر في عام ٢١٠هـ بدفعها إلى ولد فاطمة رضي الله عنها وأن المتوكل ردها إلى ما كانت عليه أي في عهد أبي بكر وأنها ظلت في عهد بني أمية ترد إلى أولاد فاطمة وتقبض منهم وإن خلافاً جرى بين علي والعباس عند عمر لما رأى أن يردها إلى آل بيت رسول الله ﷺ .

من الكتب عن فدك كتاب السقيفة وفدك لأبي بكر أحمد بن عبدالعزيز الجوهري وكان الشهرستاني صاحب الملل والنحل يرى أن الخلاف حول فدك من الخلافات التي لها صلة بالدين الإسلامي؛ لأنها تتصل بإرث النبي ﷺ .. وعلق أحد الكتاب على دراسة طالب جامعي مبدئياً إعجابه بما كتبه عن فدك في التاريخ من حيث: سعة خياله ورصانة أسلوبه وبراعته في النقد والتحليل، متمنياً لو انصرف هذا الطالب إلى موضوعات تعود بالخير على الأمة التي مزقتها الأحقاد وتلاعبت بها الأهواء وقال: إن فدك قد أصبحت في ذمة التاريخ وعادت قاعاً صفصفاً ومع ذلك لم تعد من يتصدى لنبشها لينشر منها ما يزكم الأنوف ويملاً العيون بالقذى بعد مئات السنين.

العلاقة بين صاحب هذا القول وبين صاحبه الذي وصفه بالطالب الجامعي يحكمها خلاف حاد في الرأي لا يحسن الخوض فيه غير أن القول بأن فدك قد عادت قاعاً صفصفاً ليس صحيحاً؛ فدك مدينة عامرة الآن وما يُحمد لحمد الجاسر إنه أول من عيّن موقع فدك ويديع - فيما أعلم - وأنهما الحائط والحويط^(١) وقدّم عنهما بحثاً قيمة في كتابه في شمال غرب الجزيرة والمعجم الجغرافي لشمال المملكة وكتاب الأماكن للحازمي الذي حققه ونشره حديثاً مقارناً بين ما ورد فيه وما كتبه نصر الفزاري الإسكندري، إضافة إلى مقال له نشره في إحدى الصحف عن فدك وتعليق له ممتع على مقال للأستاذ محمد حسين زيدان عن غطفان وأيامها وبلادها ومنها فدك؛ نشره في جريدة سيّارة ثم نشره في مجلته العرب معتمداً في كل ما كتب على عدد كبير من مصادر التاريخ والأدب واللغة والبلديات والبحوث والدراسات الحديثة كبحت الدكتور عبدالرحمن الأنصاري الذي نشر في مجلة الدارة.

أمّا عن جهل الناس لاسم فدك، فقد نقل الشيخ حمد ما أورده الفيروز آبادي في المغانم المطابة: إنه سأل أشراف المدينة من الفقهاء والأمراء وسأل السوقة عن فدك ومكانها فقالوا: إنهم لا يعرفونها مع أن هذه القرية لم تبرح أيدي الأشراف والخلفاء يتداولونها ناس عن ناس إلى أواخر الدولة العباسية .. وأشار إلى تعليل اسمها لغوياً كما أورده ابن دريد صاحب الاشتقاق وأنه من فدكت القطن تفديكاً أي نفشته؛ وتعليل الاسم عن البلدانين وجهلهم بمعاني المواقع قبل عهد التدوين، فلما بدأ التدوين لم يجد المعلون أمامهم شيئاً يقولونه، فلجأ كثير منهم إلى إيراد أقوال

(١) أشار أحد الإخوة إلى أن أول من ذكر ذلك هو الشيخ محمد بن بليهد في كتابه صحيح الأخبار عمّا في بلاد العرب من الآثار .

هي أقرب إلى الخراصة. يقصد فولهم: فدك بن حام وهو منقول عن ابن الكلبي وذكر الشيخ ما عرفت به فدك من الزراعة والصناعة في القديم وأن تمر فدك مشهور بالجودة وقد قيل فيه:

من عجوة الشق نطوف بالودك ليست من الوادي ولكن من فدك

وفي تاريخ المدينة لابن شبة في الحديث عن صدقات علي أن له بناحية فدك وادياً فيه نخل ووشل من ماء يجري وعلى بستانه زرنوق، فذلك في صدقته وله بناحيها أيضاً واد يقال له الأشجن وبنو فزارة تدعي فيه ملكاً ومقاماً وهو اليوم أي في عهد ابن شبة في أيدي ولاية الصدقة.

كنت قد زرت فدك (الحائط) لإعداد بحث عن نخيلها، فأخبرني أحد أعيانها أنه يُلغز عنها بسؤال عن أهل بلدة يأكلون الكلب والجرو! وتفسيره أن الكلب نوع من أنواع النخيل عندهم والجرو اسم للبطيخ وليس المقصود بالكلب والجرو الحيوان المعروف وولده.. وأحيل إلي كتاب لأحد أبناء الحائط عن بلدته من جهة حكومية لمراجعته فأبدت عليه بعض الملاحظات وكنت أترقب صدوره غير أنني لم أره نُشر.. وفي ذلك الكتاب معلومات عن الزراعة والصناعة في فدك قديماً. وكان مما ذكره مؤلفه أن النبي ﷺ لُفَّ يوم موته بقطيفة فدكية.. والذي أورده الشيخ حمد عن هذا الموضوع هو ما ذكره ابن هشام في السيرة من أن النبي ﷺ ركب حماراً فوقه قطيفة من صنع فدك. وأخيراً تبقى فدك بحاجة إلى المزيد من البحث في تاريخها وحصونها وقلاعها والنقوش الكتابية الكثيرة فيها وفيما حولها من المواقع الأثرية والتاريخية^(١).

(١) في فدك حصون كثيرة قال البكري: إن أشهرها حصن الشمروخ.. وفي المواقع المحيطة بفدك اكتشفت نقوش كثيرة إلى الغرب منها وللدكتور سعد الراشد إشارات علمية جيدة حول هذه الاكتشافات.

مصادر و مراجع

- ١ - البكري . معجم ما استعجم .
- ٢ - البلاذري . أنساب الأشراف .
- ٣ - ابن تيمية . منهاج السنة .
- ٤ - الحازمي . الأماكن .
- ٥ - ابن دريد . الاشتقاق .
- ٦ - ابن سعيد . نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب .
- ٧ - ابن شُبَّه . تاريخ المدينة .
- ٨ - الطبري . تاريخ الأمم والملوك .
- ٩ - أبو عبيدة . أيام العرب قبل الإسلام .
- ١٠ - القلقشندي . صبح الأعشى في صناعة الإنشاء .
- ١١ - ابن هشام . السيرة النبوية .
- ٢١ - الهمداني . صفة جزيرة العرب .
- ١٣ - ياقوت . معجم البلدان .
- ١٤ - حمد الجاسر . في شمال شرق الجزيرة .
- المعجم الجغرافي (شمال المملكة) .
- ١٥ - د. سعيد السعيد . حملة الملك نبونيد .